

الفصل الثاني

العرب قبل الإسلام

كان العرب قبل الإسلام ممالك أثرت من حاصلاتها وصناعاتها واتساع تجارتها ثراء عريضاً أطمع فيها اليونان والرومان والأحباش والفرس فحالفتهم حيناً ، وحمّت حدودهم منهم حيناً ، واستقلت عنهم أحياناً ، ثم تحدتهم وساعدت على جلائهم عن الشرق الأدنى . ومن أولئك العرب أهل حضارة وثقافة وفن ، فتكلموا إلى جانب العربية - الآرامية واليونانية واللاتينية ، وشادوا المدن والهياكل والقصور ، ورعوا العلماء والفلاسفة والأدباء وأصحاب الفنون ، ونعموا بأطياب العيش مآكل ومشرب وملاب ، ثم خلدوا تراثهم منها بنقشه على الرقم ومسكوكات ملوكهم ومراكز ثقافتهم ودواوين شعرائهم .

١ - اليمن :

وكان عرب اليمن الذين عرفوا بالجنوبيين - أول من أنشأ الممالك فتداولها منهم : المعينيون (١٢٠٠ - ٦٥٠ ق. م) والسبئيون (٦٥٠ - ١١٥) والحميريون (١١٥ ق. م - ٥٢٥ م) ، وقد عبر بعضهم البحر الأحمر (القرن الثاني ق. م) إلى الحبشة ، فاستعمروها ونشروا ثقافتهم بين أهلها وتزوجوا منهم .

وفي عهد الحميريين غضب قيصر أغسطس من سيطرة اليمن على التجارة بين مصر والهند وطمع فيها ، فجرد حملة عليها من مصر بقيادة واليها إيلوس جاليوس (٢٤ ق. م) يؤيدها الأنباط حلفاء رومة^(١) ، ولما فشلت في فتحها - ويعزى فشلها إلى خيانة دليلها سيلالوس سفير الأنباط وأبي عبيدة ممثل ملكهم - أنفذ جيشاً رومانياً آخر استولى على عدن ، فأخذت التجارة بين مصر والهند تتقل إلى يد رومة . وفتح الأحباش اليمن (٣٤٠ - ٣٧٨) ، واستعادها الحميريون ليفقدوها ذو نواس آخر ملوكهم ، وقد تهودوا بعد أن أوعز بمذبحة نصارى نجران

(١) وقد أرخ لهذه الحملة سترابو اليوناني ، وهو أعظم الجغرافيين الأقدمين ، صاحب كتاب الجغرافيا ، في ١٧ جزءاً ، صدر في عام ٧ ق. م مقتبساً بعضه من بوسيدونيوس الأفاقي . Strabo, Bk XVI.

(٤٥١) ، وكانت النصرانية على مذهبيها قد دخلت اليمن من سوريا ، ثم بسفارة الإمبراطور قسطنطين (٣٥٦) ، فقامت فيها ست أسقفيات ذكر الكلبي بعضها باسم الكعبة^(٢) وكشف فيلي عن كعبة نجران عام ١٩٣٦ - فأمد إمبراطور القسطنطينية نجاشي الحبشة بالسفن والمؤن ، فسير على اليمن حملة أدالت دولة الحميريين ، وخلفتهم عليها (٥٢٥ - ٥٧٠) ، وبنيت بيعة في صنعاء ، وأحدث أحدهم فيها ، فقصد أبرهة قائد الأحباش مكة فرده عنها طير أبابيل^(٣) ثم عظم ظلم الأحباش فاستعان اليمنيون عليهم بالفرس فدحروهم (٥٧٠) ، وحلوا محلهم حتى دخلت اليمن في الإسلام (٦٣٠) ، وأجلى الخليفة عمر (٦٣٥ - ٦٣٦) ، من لم يسلم من نصاراها إلى الشام والعراق^(٤)

وأثرت اليمن منذ الألف الأول قبل الميلاد ثراء طائلاً من حاصلات بلادها : كالأفاويه والبخور والمر ، وكان لها شأنها في الشعائر الدينية الآسيوية والمصرية . وبعد تحويل كبرى مدنها إلى سوق دولية لمتاجر العجم والمهند ، وقد عدد منتجات الهند أبو الضلع السندی أحد الشعراء من الموالي^(٥) والصين والحبشة وسواحل أفريقيا ، فزخرت باللؤلؤ والعاج والذهب والحرير والحنور ، وفي تأمينها السفن والقوافل والطرق لنقل تلك المتاجر إلى أسواق الشرق الأدنى ، مما عرف اليونان والرومان باليمن قبل غيرها ، فأطلقوا عليها في نصوصهم : العربية السعيدة ؛ وجعل المقدسي يضع ثبناً دقيقاً لأنواع سلعها ، وحمل المؤرخين على وصف عدن مرقها بدهلين الصين وفرضة اليمن وخزانة الغرب ومعدن التجارات ، وأجراها على أقلام أدباء الغرب ، فذكر كنوزها هورامس ، وعطورها شكسبير ، وسواحلها المليئة بالتوابل ملتن .

وسبقت اليمن إلى إنشاء حضارة وطنية راقية تتمثل في سد مأرب وصناعة البرود والسيوف ، وقد وصف سترابو دولة سبأ بقوله : « عندها مستحدثات الأدوات المصنوعة من الذهب والفضة ناهيك بمنازلها الفخمة التي ازدانت بالألوان ورصعت بالعاج والحجارة الكريمة . . وفيها مدن عامرة تزينها الهياكل الجميلة والقصور » . ومن أشهر ملوكها ملكة سبأ^(٦) التي عاصرت سليمان الحكيم ومما حُملت إليه مائة وعشرون وزنة ذهب .

(٢) ابن الكلبي ، الأصنام : ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) سورة الفيل : ٣ .

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان : ١٠١ و ١٠٢ .

(٥) القزويني ، كتاب الآثار : ٨٥ .

(٦) « وأوتيت من كل شيء » ولها عرش عظيم « (النمل : ٢٣) .

وعد خلدت اليمن حضارتها تلك في عاداتها وما سجلته على نقوشها (الرقم) بلغتها الجنوبية المحتوية على تسعة وعشرين حرفاً والمشتهرة بالخط المسند المشتق من الخط الكوفي ذي الاثنين والعشرين حرفاً. وأول من كشف عنها ووصفها وصفاً علمياً تبيير الدانمركى في بضعة كتب (١٧٧٢ - ١٧٧٨) ، وتبعه من العلماء كثيرون أشهرهم أرنو الفرنسى الذى كشف عن الحروف العربية الجنوبية لأول مرة (١٨٤٥) وجلالز النموسى الذى نقل في رحلاته العلمية (١٨٨٢ - ١٨٩٤) ١٠٣٢ نقشاً ، بينها نقوش تاريخية ودينية وجنائزية وقانونية وعسكرية ومعمارية أضحت بعد نشر جزء منها أصدق مصدر لتاريخ اليمن قبل الإسلام .

٢ - البتراء :

وتزل الأنباط - من شمال شبه الجزيرة العربية - بأرض الأدوميين - المعروفة اليوم بوادى موسى في شرق الأردن - قبائل رحل (حوالى ٦٠٠ ق . م) ، ثم تحولوا إلى مجتمع متحضر ، وجعلوا عاصمتهم البتراء ، ومعناها باليونانية الصخرة ، وكانت المدينة (الوحيدة) ذات المياه العذبة الغزيرة بين الأردن وبين الحجاز - سوق تجارة رائجة ، تلتقى عندها قوافل الشرق ، وتنطلق سلعها منها إلى ثغور البحر الأبيض المتوسط طوال أربعمائة سنة .

وقام الحارث الأول (١٦٩ ق . م) على رأس قائمة ملوك الأنباط ، ويمكن لهم الحارث الثالث (٨٧ - ٦٢ ق . م) فهزم إسرائيل ، وحاصر أورشليم وفتح دمشق وتوج عليها ملكاً (٨٥ ق . م) ، وسك أول نقد نبطى ، وصد هجوم بومبى ، ثم أصبح هو وخلفاؤه حلفاء رومة ، فاستعانت بهم على اجتياح الإسكندرية ، وأيد عبيدة الثانى (٢٨ - ٩ ق . م) حملتها على اليمن ، وبلغت البتراء الذروة في عهد الحارث الرابع (٩ ق . م - ٤٠ م) ، فزوج إبنته ، الحاكم هيروودس بن هيروودس الكبير وحاربه لما طلقها ، ووسع رايبيل الثانى (٧١ - ١٠٥) - وهو خاتمة ملوك الأنباط - رقعة دولته حتى قضى عليها تراجان (١٠٦) ، وضمها إلى الإمبراطورية الرومانية باسم الولاية العربية جاعلاً بصرى في حوران عاصمتها .

ونقر الأنباط هياكلهم في صخور البتراء^(٧) وشادوا مبانيهم على واديهما وشقوا بينها جادات في رواء شوارع الإسكندرية ، واكتسوا بالخز والديباج ، وأطعموا لذيد المآكل « لا يحتسى المرء منهم في مادبهم أكثر من إحدى عشرة كأساً متناولاً في كل مرة كأساً ذهبية مختلفة^(٨) » .

(٧) « وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتحتنون الجبال بيوتاً » (الأعراف : ٧٤) .

Strabo, Bk, ch. 4, 26

(٨)

وكانت حضارة الأنباط مزيجاً من العربية واليونانية والرومانية تأثرت بمذهب مينيوس الفيلسوف الكلي الذي أقام في قطره (القرن الثالث قبل الميلاد) واحتذاه : لوسليوس ، وفارو ، وهوراس ، ثم أنطيوخوس العسقلاني (المتوفى عام ٧٩ ق. م) وقد حاول التوفيق بين الأفلاطونية والرواقية ، وأسس مجعاً في فلسطين ، وعلم في مجمع رومة ، ومن تلاميذه شيشرون ؛ كما كانت عربية اللغة ، آرامية الكتابة ، سامية الديانة ، فلما قضى تراجان على الأنباط ، وتحولت القوافل عن عاصمتهم إلى تدمر - اضمحلت البتراء ، وأمست مقابرها العظيمة مذاود تأوى إليها قطعان البدو حتى كشف عنها بوركهارت (١٨١٢) ، فأما الأثريون ، ووصفوا أطلالها كالدير وخزنة فرعون ، وصنف ديسو كتاباً في نقود ملوكها (١٩٠٤) .

٣ - تدمر :

وما آذنت شمس البتراء بالأفول حتى سطعت شمس تدمر ، وهي مدينة قديمة ورد ذكرها (١١٠٠ ق. م) في النصوص الآشورية ، تبعد ٢٣٠ كيلومتر من دمشق و١٦٥ من حمص ، على طريق القوافل بين العراق وبين بادية سوريا ، احتفظت باستقلالها برغم تبعيتها للسلوقيين والرومان . وقد ازدهرت فيها التجارة ازدهاراً بلغ رومة ، فأمر مارك أنطونيوس الفرسان بغزوها (٤١ ق. م) ، ففر أهلها بمتاعهم منها ، وألحقها طبريوس برومة (١٧ - ١٩ م) ، وضمها تراجان إلى الولاية العربية (١٠٦) ، وخلع عليها هديران اسمه عندما زارها (١٣٠) ، ومنحها سبتيموس سفيريوس لقب مستعمرة رومانية ، وجعلها حاضرة الإقليم (٢٠٠) ، وأنعم فالريان على أذينة بن السميذع زعيمها برتبة القنصلية (٢٥٨) ، ولما أحرق الفرس أنطاكية وأسروا فالريان عند الرها (٢٦٠) - وقد توفى في الأسر وحشى جلده وعلق على أبواب أحد المعابد - عهد خليفته جاليانوس إلى أذينة بقيادة الجيوش الرومانية في سوريا ، فحارب بها الفرس وغلبهم في طشقونة ، واستعاد بلاد ما بين النهرين وتعقبهم حتى أسوار المدائن (٢٦١) ، فكافأته رومة بلقب المشيخة الرومانية (٢٦٢) ثم بلقب إمبراطور فخري ، فحكم مع اعترافه بسلطة الإمبراطور - الشرق الروماني ما خلا مصر وآسيا الصغرى . ولأمر ما سمّ هو وابنه في حمص (٢٦٦) فارتقت أرملته زنوبيا - وهي الزباء في المصادر العربية ، وأمها يونانية من ذرية كليوباترة - العرش وصية على ابنها وهب اللات .

وعندما رفض جاليانوس الاعتراف لابنها بألقاب أبيه سيرت قواتها ففتح قائدها زبدة مصر

(٢٧٠) واستولى على الإسكندرية وضرب تقوداً عليها رأس وهب اللات بجانب رأس أورليان ، وأرجع قوادها الآخرون الرومان إلى أنقرة فاستولت على آسيا الصغرى مما اضطر أورليان إلى الإقرار لابنها بألقاب أبيه ، فطمعت ولقيت ابنها بأغسطس ونفسها بأغسطس ، وضربت تقوداً باسمها واسمه وقد حذفت رأس أورليان (٢٧١) فغضب أورليان واستعاد منها مصر ، وغلبها على أمرها في أنطاكية وحمص ، وحاصر عاصمتها فاستسلمت له واستولى على كنوزها ، وساق ملكها مكبلة بسلاسل من الذهب فزينت موكبه في دخوله رومة (٢٧٤) حتى إذا ثارت تدمر بالحامية الرومانية كر الإمبراطور عليها وأسلمها للنهب والحراب ، فقضى على عروس الصحراء ، ولم تقم لها من بعد قائمة إلا في بعض النشاط التجاري ، والسور الذي بناه حولها ديوكليسيان وبضعة أبنية شيدها يومستيان ، وجر المياه إلى الحامية الرومانية فيها ، ثم فتحها خالد بن الوليد (٦٣٣) ورفع فيها الأمويون ثلاثة قصور ، حتى إذا ثارت على مروان (٧٤٥) دمرها تدميراً ، وما قُتئ الأثريون يكشفون عن روائعها ، وآخرهم البعثة البولونية التي تنقب اليوم بين أطلالها .

لقد التقت في تدمر متاجر العجم والصين والهند وشبه الجزيرة العربية ومتاجر رومة وآسيا وغاليا وإسبانيا ، فأنشأت لها الرحاب وبنيت على جوانبها القنادق ، وشيدت بفضلها مدارس للطب والبلاغة والفلسفة ، ورفعت دار الندوة والهاكل ومن أفخمها هيكل الشمس (٣٠ م) الذي حملت إليه حجارة الغرانيت من شلال النيل ، وجعل طول بيوه أربعة آلاف قدم - فكان أكبر الأبياء في الإمبراطورية الرومانية - والأبراج ، وزينت شوارعها المرصوفة المسقوفة المضاعة في الليل بالعمد المزخرفة فبلغ طول شارعها الرئيسي أربعة أميال ونصف الميل ، وعدد عمدته ٣٧٥ عموداً ارتفاع كل منها ٥٥ قدماً مما يدل على علم وفن وبدخ أدهش بعض المؤرخين المسلمين ، فنسبوا بناء تدمر إلى الجن بأمر سليمان !

وكانت زنوبيا المتضلعة من الثقافة الهليستينية والمتكلمة باليونانية والآرامية والعربية وبعض اللاتينية ، ولها مصنف في تاريخ بلدان الشرق - تعيش في بلاط أشبه بايوان كسرى ، وتحيط نفسها بالفلاسفة والعلماء والشعراء وأصحاب الفنون ، فاشتهر منهم : لونجينيوس أستاذاً في الأدب ثم مستشارها ، وقد لقب بالكتابة الحية لغزارة علمه ، وأميليوس الفيلسوف الذي أنشأ برعايتها في أفاميا مركزاً للأفلاطونية الحديثة ، ونيقولاس الدمشقي مؤلف التاريخ العام ، فزجت تدمر بين الحضارات السورية والفارسية وبين الهليستينية التي انعكست عليها من مدارس رودس وأثينة والإسكندرية وبيروت وأنطاكية ، وأضافت إليها ما عاد به أبنائها

الذين كان الرومان بصطنعونهم منذ القرن الأول للميلاد رماة في شمالي أفريقيا وبريطانيا حضارة فريدة ظلت حتى القرن الثالث للميلاد تسجلها بالآرامية إلى جانب اليونانية .

٤ - بصرى :

وكانت حوران - وهى على مشارف سوريا - خاضعة للأباط ، فوضعها أغسطس تحت حكم هيرودمس ، وجعل تراجان^(٩) مدينتها بصرى - ومعناها الوعر أو البطم - عاصمة الولاية العربية بعد قضائه على البتراء (١٠٦) ، وفي بصرى تلك ولد فيليب العربي من أم نصرانية ، وكان ثرياً مثقفاً مخلصاً لرومة ، فقتل الإمبراطور دسيوس الذى ضعف أمام هجمات الفرس ، ثم أبرم معهم عهداً ، وعاد إلى رومة ، فأقره مجلس الشيوخ إمبراطوراً (٢٤٩) ، فوضع منهجاً يعيد إلى الإمبراطورية دينها وأخلاقها وعاداتها ، وأمر بالقضاء على المسيحية ، ولما قتل القوط ابنه إلى جانبه عند نهر الدانوب صاح في جيشه الهياج : لا قيمة لخسارة فرد . وكر على العدو وقتل في أقصى هزيمة أصابت الرومان (٢٥١) .

وفي ذلك القرن شق النساسنة طريقهم من اليمن ، بعد خراب سد مأرب وتفرق أهله إلى حوران ، وقد سبقهم إليها ولحق بهم بطون من العرب ، فاستوطنوها ونقلوا بينها ، واستقروا في جلق مدة ، وجعلوا تبوك مقراً لحمايتهم ، واتصلوا ببيزنطية ، وأسس جفنه بن عمرو مزقيا دولتهم ، ثم تنصروا على مذهب الطبيعة الواحدة الغالب على سوريا . وكان أعظم ملوكهم شأناً الحارث بن جبلة (٥٢٩ - ٥٦٩) الذى انتصر على اللخمين ملوك الحيرة وحلفاء الروم ، فكافأه جوستيان بلقبى بطريق ورئيس قبيلة ، وهما أعلى المراتب بعد الإمبراطور ، وأطلق يده ، في شمالي سوريا (٥٢٩) ، ثم عاون بيزنطية على قمع الثورة السامرية وفي حرب الفرس (٥٤١) إلا أن أحد أبنائه وقع في أسر المنذر الثالث اللخمي (٥٤٤) فقدمه ضحية للعرى ، فلما فاز الحارث بنخصمه انتقم لابنه منه بقتله في وقعة قرب قنسرين (٥٥٤) وزار بلاط جوستيان (٥٦٣) وخلف فيه أثراً طيباً ورجع منه بأمر تعيين يعقوب البرادعى مطران الرها أسقفاً على الكنيسة السورية ، فعرف أتباعه من بعد باليعاقبة ، ومد الحارث رقعة مملكته من قرب البتراء إلى الرصافة شمالي تدمر ، وجعل بصرى التي بنيت كاتدرائيتها (عام ٥١٢) عاصمتها الدينية وورثة تدمر السوق التجارية ، وخلفه ابنه المنذر (٥٦٩ - ٥٨١) فسار على

(٩) أنشأ أسطولا في البحر الأحمر للسيطرة على تجارة الهند ، حتى إذا دخلت سفن الرومان المحيط الهندي فما بعد -

طلقت دول التجارة . اليمن ، والبتراء . وتلمر ، وبصرى ، والحيرة - تسقط الواحدة تلو الأخرى . تم تلاها تدهور سياسى .

خطاه ، ولكن غيرته على مذهب الطبيعة الواحدة غير المتفق مع دين الإمبراطورية الرسمي أغضبت منه بيزنطية ، فشق الغساسنة عليها عصا الطاعة طيلة ثلاث سنوات ، ثم عقد الصلح بينها عند قبر القديس سرجيوس بالرصافة (٥٧٥) وقصد المنذر بولديه القسطنطينية (٥٨٠) فاحتفى بهم إمبراطورها الجديد طيباريوس الثاني ، وأنعم عليه بالتاج ، فلما رجع أغار على الحيرة ، وأحرقها ما خلا كنائسها ، ولأمر ما قبض عليه عامل بيزنطية في سوريا ، وساقه مع زوجه وثلاثة من أبنائه إلى القسطنطينية فنفته إلى صقلية . وأقسم ابنه الأكبر وخليفته النعمان ألا يرى وجه بيزنطى بعد ذلك ، وطلق يشن الغارات على حدود الإمبراطورية ، وبعث فساداً فيها حتى قبضت عليه (٥٨٤) وسيرته أسيراً إلى القسطنطينية ثم ألحقته بذوى قرابته في صقلية . عندئذ عمت الفوضى الغساسنة فأمرت كل قبيلة شيخاً منها عليها ، والحرب بين بيزنطية والفرس سجال حولها حتى إذا فتح كسرى أبرويز دمشق ، وأخذ عود الصليب من القدس (٦١٣ - ٦١٤) واسترجعها هرقل (٦٢٩) كانت دولة الغساسنة قد دالت ، إلا من جبلة بن الأيهم ، ويعتبر آخر ملوكهم ، وقد انضم إلى البيزنطيين في قتال العرب عند وقعة اليرموك (٦٣٦) ثم انفض بجاعته من حولهم .

لقد غلب على حضارة الغساسنة الطابع العربي ، فكانت دون تدمر ، وفوق الحيرة لصلتها بالبيزنطيين لا بالفرس جيران اللخمين . وانتفعت بالمدنات اليمنية والسورية واليونانية لإبداع حضارتها ، واتخذت الآرامية لغة لها دون أن تهجر لسانها العربي الذي جاءت به من اليمن - وقد فصل ذلك ديسو في كتابه « العرب في بلاد الشام قبل الإسلام » ١٩٥٥ - وما زالت آثارها تدل عليها في الدور المشيدة من الرخام الأسود ، وقصور بصرى ، وأقواس النصر والمسارح ، والأسواق ، والقنوات ، والحمامات العامة

أما بلاطها فقد غنت فيه القيان من مكة والحيرة والقسطنطينية ، ووفد عليه شعراء العرب من أمثال : لبيد ، وحسان بن ثابت ، والنابعة الذيباني القائل في ملوكه :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بين فلول من قراع الكتائب

٥ - الحيرة :

ونزح اللخميون عن اليمن مثل الغساسنة في القرن الثالث للميلاد إلى تخوم العراق ؛ وقضوا أيامهم الأولى في المضارب ، ثم نزلوا بالحيرة (٤٣١) - وهي كلمة سريانية معناها نخيم وهي بالقرب من بابل القديمة ، وكان سكانها نصارى على مذهب الطبيعة عرفوا فيما بعد

بالنساطرة ، ومنها انتقلت إلى البحرين - حيث أسس دولتهم عمرو بن عدى بن لحم ، واستتب لهم الملك على يدى امرئ القيس الأول (المتوفى عام ٣٢٨) ، ثم ابنتى ابنه النعمان الأول (٤٠٠ - ٤١٨) قصر الخورنق ، وحمل على النصارى ، وخلفه ابنه المنذر الأول (٤١٨ - ٤٦٢) فازدهرت الحيرة في عهده ، وبلغ من السلطان مبلغاً حمل الفرس على تنويج بهرام - وكان النعمان الأول قد رباه - ملكاً عليهم ، وأيدهم في قتال البيزنطيين (٤٢١) ، وزادت الحيرة تألقاً أيام المنذر الثالث بن ماء السماء (٥٠٥ - ٥٥٤) ، فأصلح بين قبيلتي بكر وتغلب (٥٢٥) ، وقاتل البيزنطيين في سوريا ، وبلغ بغاراته أنطاكية ، فنشط الفساسنة لملاقاته ، فأسر أحد أبناء ملكهم الحارث الثاني ، وقدمه ضحية للعزى (٥٥٤) تقديعه أربعائة راهبة .

ثم ظفر به الحارث وقتله في وقعة قرب قنسرين (٥٥٤) ، وخلفه ابنه عمرو ابن هند (٥٥٤ - ٥٦٩) ، وقد نسب إلى أمه - وكانت أميرة غسانية بنت في الحيرة ديراً ظل معروفاً بدير هند حتى القرن الثاني للهجرة - وسقطت الأسرة اللخمية بنهاية النعمان الثالث (٥٨٠ - ٦٠٢) وهو ابن المنذر الرابع ، وقد تصرف في قصة مشهورة ، على المذهب النسطورى ، وهو أقل المذاهب كراهية عند الفرس ؛ إلا أن كسرى استدجره لخلاف عائلي بين العرب إلى عاصمته ، وألقاه تحت أقدام القبيلة ، وولى الملك بعده ياساً بن قبيصة من بنى طيبى (٦٠٢ - ٦١١) وجعل إلى جانبه مقيماً فارسياً ، فثار العرب لمقتل مليكهم ، وطفقوا يغربون على حدود فارس حتى ثلموها ، وهزموا فيالقتها هزيمة ساحقة في ذى قار (٦١٠) ، واستمروا في الحيرة قوة قبلية ضاربة حتى الفتح الإسلامى ، فيسروه للفاتحين ، ومشوا في ركابهم .

لأن كانت حضارة الحيرة ، وقد كشف عنها رايس (١٩٣٤) دون حضارات العرب التي مرت بنا - لقد تكلمت العربية مثل بعضها وكتبت بالآرامية إلى جانب العربية مثلها . وأنشأ اللخميون في الحيرة بلاطاً شبه فارسى وعنوا كالفرس بالموسيقى والشعر ، فتمثلت حضارتهم فيما روى الشعراء عن قصورهم وبطولتهم وثرانهم ، ومن فحول الشعراء الذين أموا بلاطهم : طرفة بن العبد ، والحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم .

٦ - مكة :

كانت مكة على صلات تجارية قديمة بسوريا والعراق واليمن ومصر تحولت ، بعدها إلى طريق لقوافل الشرق الأدنى ، ثم إلى سوق رائجة في القرن السادس للميلاد ، وحلت محل

ما بار من أسواق الدول العربية . وذلك بحكم موقعها في وسط الطريق التجاري الجديد ، وفضل سيادة قريش عليها ، وإنشاء حلف الفضول فيها شبه جمهورية تجارية رتبت دوائرها ، ونظمت تجارتها ، وفرضت ضرائبها ، وأمنت أهلها ، فحظت سوقها بسلع الدول العربية والحبشة وأفريقيا وفارس والشرق الأقصى ، وشاعت فيها الدنانير البيزنطية والدرهم الفارسية والعملة الحميرية ، هذا خلا النوق وكانت الوحدة النقدية بين العرب ، وسيرت القوافل في رحلتى الشتاء إلى اليمن والصيف إلى الشام^(١٠) ، وقد رجعت إحداها من غزة ، ولم تكن بأكبرها ، وفيها ألف بعير ومعها خمسون ألف دينار^(١١) .

وكانت مكة عاصمة الحجاز مدينة دينية وسوقاً تجارية ، غلبت عليها الوثنية على أقلية نصرانية ويهودية ، وكانت قريش تقطن منها شعابها ومحاورها في أرياضها بعض الأحلاف المتلحقين بالأسر المكّية وجاعات ممن يتعاطون التجارة من سوريا ولبنان وبيزنطية ، ويرتقون بالموسيقى ، ويحترفون الطب - وأشهرهم الحارث ابن كلدة خريج جند يسابور - وثمت جالية حبشية أسلم بعضها كبلال مؤذن الرسول . وعندما اضطهد وأوذى المسلمون تصحهم النبي بالذهاب إلى الحبشة : فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق^(١٢) ، وقد رحب بهم ملكها ، وأكرم وقادهم

وكان اليهود الذين لجئوا إلى الحجاز في القرن الثامن قبل الميلاد يتزلون أخصب الواحات حول مكة في تيماء وفدك ووادي القرى ، وسيطرون على الزراعة والمصارف والتجارة حتى إن قبيلة منهم احتكرت سوق يثرب فاستفرت الأوس والخزرج فيها وقريشاً في مكة ، فلما جاء الإسلام وضع حداً لسيطرتهم ، ثم استن عمر سنة : لا بقاء في الجزيرة لغير الإسلام ديناً ، فأجلى النصارى واليهود عنها^(١٣) .

وتميزت ثقافة الحجاز بطابعه المحلى الصرف التى عبرت عنها بلغة القرآن الكريم : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »^(١٤) . ولكن الحجاز كان محاطاً في العصر الجاهلى بمؤثرات دينية وفكرية ومادية انعكست على ثقافته : فأهل نجران ينقلون النسيج إلى مكة لسر الكعبة ،

(١٠) قريش : ٢ .

(١١) الواقدي : كتاب المغازى ، ص ١٩٨ .

(١٢) ابن سعد ، الطبقات ، ج ١ ، ص ١٣٦ .

(١٣) البلاذرى ، فتوح البلدان : ١٠١ و ١٠٢ .

(١٤) سورة الزخرف آية ٢ .

والأنباط يحملون إليها الحبوب والزيت والخبز ، والغساسنة يفدون عليها ، فتترهم قلب المدينة ، واللخميون يضاربون في أسواقها ومصارفها ، وجالية من الأبحاش مستقرة بها . ثم تنصر ملوك كندة عمال تبابعة اليمن ، ومنهم أمرؤ القيس الشاعر ، وقبائل جذام - وقد ولى أحدها فروة بن عمر الجذامي قيادة جيش الرومان في وقعة مؤتة - وعذرة وتغلب ويكر ثم بعض القبائل المجاورة ، ولكنهم تنصروا على ملهين قسماهما إلى عرب شرقيين وعرب غربيين ، فراح كل فريق ينافس الآخر في استمالة الوثنيين إلى شيعته بتشيد الكنائس والأديرة والمدارس لهم ، وغلبت الثقافة النسطورية الآرامية - ثم أصبح النساطرة فيما بعد همزة وصل بين الثقافتين الهلنستية والعربية - ودخلت الكلمات اللاتينية واليونانية والآرامية اللغة العربية : كقنديل ، وثر ، وفدن ، ولفظ قصر - الذي أعادته إلى إسبانيا الكازار - وتأثرت بالمفردات العبرية : كجبريل ، وسورة ، وجبار ، خلا الإسرائيليات .

أولاً من زار مكة ووصف مناسك الحج فيها ليليش (١٨٠٧) ، ثم تبعه كثير من المستشرقين ، فجابوا الحجاز ، وكشفوا عن آثاره وأسراره .